حديث ساعة

فى غير موضوع واحد ....

مع الدكتور زكى مبارك

أدب ، وفكاهة ، وفن

كنا نسمر فى (قهوتنا) المتواضعة ، وكان « البرد » فى هذه الليلة قد احتجزنا فى ركن لا ينازعنا فى أرائكه عدو أو صديق ، وكانت جماعتنا ، جماعة (المعرفة) ، قد أفلتت من زمهرير الليل، فانتهى كل واحد إلى بيته .. إلا أربعة لا يزيدون .. ولا أطيل عليك فى تصوير انكماشنا وما كان يدفعنا إليه من صمت . . . على أن السماء قد أمطرتنا شعلة من اللهب — وليس هو باللهب المحرق، فقد كانت ناره سلاما — ذلك أن الدكتور زكى مبارك قد حملته نفسه الطائرة إلى مكاننا القصى .. فزدنا واحداً .. وكان فى الحق واحداً كبيراً ...

ثم تحدثنا . . وهل كان من شأننا أن نصمت وأن يواتينا فى مجلس الدكتور انكماش ؟ لقد تحدثنا ، وتحدثنا طويلا جداً، وكان حديثنا شهياً لا أستطيع إلا أن أدفع إلى قراء (المعرفة) منه نصيبهم المحفوظ .

***

غبن الأدباء:

تحدثنا عن غبن الأدباء ، وكان من رأى صديقى صاحب (المعرفة) أن فى الأدباء من هم مغبونون حقاً ... ولكن أكثرهم يدعى « الغبن » ويؤلف له فى صدده الأقاصيص ، ولم ينته الصديق دون أن يسجل على الدكتور بأنه نفسه مغبون ، ومغبون جداً . . .

هنا شاء الأستاذ الدكتور أن يسمو على مستوى الغبن والمغبونين ، فقرر — فى صراحته المعهودة — بأنه من ذلك الصنف الذى لا يعنى بالجو الملبد ، والأفق الضيق ، وأنه خير له وألف خير أن يمسك قلمه ويصعد المنبر — منبر الصحف — فاذا هو ملاق أنصاراً لا عداد لهم، وإذا هو ملاق تلاميذ مخلصين يتوجه بهم فى تعرف الآداب الوجهة التى يستطيعون معها أن يقدروا البحث الخالص ، والفكر السديد الجرىء ....

***

وإذا كان القراء فى الشرق العربى كله يدركون مبلغ ما يتعهد الدكتور زكى مبارك من

نباهة الذكر وذيوع الصيت ، وإذا كانت رسائله الكثيرة الداوية فى جوانب الصحف قد وفرت عليه أسباب السعادة — سعادة الضمير — فما من شك فى أن نظرانه إلى رسائله قد توقف القراء على ناحية من تفكيره ، وهذا ماذهبنا إليه حين سألناه : كيف ترى رسائلك بعد إذاعتها ؟ فانظر ماذا أجاب :

« قد لا يعرف الكثيرون عنى أننى حريص كل الحرص على رسائلى جميعاً ، لأنى أتمثلها قطعاً متناثرة من نفسى وحسى ، وهمك بهذه القطع المتناثرة من حس صاحبها كيف يكون تقديرها فى نفسه ؟ ليس من شك فى أنه تقدير جم التقدير ... ولا أستطيع أن أكتمك بأنى أرى فى بعض رسائلى مالا يعجبنى بعد نشره ، ولكنى لا أدع الفرصة السانحة دون أن آخذ فيها تلك الرسائل بالتحوير حتى تثير فى طويتى روح الاعجاب... »

كيف أرى رسائلى القديمة ؟

وسألنا الأستاذ الدكتور : وكيف ترى رسائلك القديمة التى كتبتها قبل أن تفعمك الحياة بهذه الألوان الجديدة التى تبدو عليك .. ؟ فأجاب :

« أرى أن الأمر ينتهى بى فى صدد هذه الرسائل من حرص إلى حرص ، ومن ضن إلى ضن ، فقد احتملت نظراتى فى فترة كانت تتعهد النفس فيها حالة التطور ... ولا أكتمك أنى أرى أن هذه الرسائل قد احتملت آراء لى لم أتحول عنها حتى اليوم . . . على أن بعضاً منها كانت تفعمه خيالات لا أستطيع أن أواجهها الآن دون عاصفة من الضحك الوفير ... وإليك مثلا : كتبت من أمد بعيد رسالة أدعو فيها إلى تجديد الأزهر ، وأنحيت باللائمة على أولئك الذين لا يبيحون غرس البساتين فيه ، حتى يكون مثلا لجامعة باريس التى تحوطها الأفنان ويفيض فى أبهائها الدوح .... كتبت هذه الرسالة قبل أن أغادر مصر إلى باريس . . . فلما مضيت إلى العاصمة الفرنسية وشهدت الجامعة التى أردت أن يتأثرها مصلحو الأزهر . . كان من شأنى أن هزنى العجب ومادت بقلبى الغرابة ، لأن جامعة باريس لا يكتنفها الدوح ولا تتسامى فى أبهائها الأفنان ...! ألم يكن ذلك الخيال مضحكا ..؟ إنه كان مضحكا ولا ريب ، ولكنى لم أشأ أن أزحزح الرسالة القديمة عن موضعها فى كتاب « البدائع » مطلقا .. وإنك لترى من ذلك أننى على رسائلى جميعها جد ضنين »

كيف أتقبل النقد والتقريظ ؟

وسألنا الدكتور : كيف تقابل الرسائل التى يتناولك أصحابها بالنقد أو التقريظ ؟ فأجاب :

« أؤكد لك أن الرسائل التى يتناولنى أصحابها بالتقريظ لا تستهوينى إلى الحد الذى يثير فى نفسى الاعجاب والزهو ، فأن لى فى تلاوة رسائلهم مذهباً متبلداً لا يتنقل بين سطور تلك الرسائل إلا فى شىء من التردد والعى ، ولقد يبدو ذلك الأمر عجيباً مدهشا ، على أننى

لا أعجب منه ، لأنى — فى الساعة التى أشكر فيها من يقرظنى — أرى أن التقريظ يضع على عاتقى أعباءاً ثقالا ، أما أولئك الذين يتوجهون إلى بالنقد — مهما يكن نقدهم مراً — فأنى أتقبل نقداتهم على أنها تحية خالصة ، ودعوة حارة إلى صداقة دائمة ... إنى لصدراً رحبا يتقبل النقد فى غير اضطغان ، ولكنى أقدر الناقد الرقيق اللفظ ، السليم الذوق ، القوى الحجة ، وأرى من الحتم على أن أمد له من أسباب الحوار حتى ينتهى الأمر بواحد منا إلى إقناع صاحبه . وصديقى الأستاذ الاسلامبولى يعرف هذا ويقرره . أما أولئك الذين ينقدون عن هوية فى نفوسهم تدعوهم إلى النقد جزافا ، فليس الشأن عندى أن أحتقرهم على الرغم من ثقتى بأنهم لا يأملون من وراء النقد اقتناعا ، وإنما أتناولهم بالرد المفحم ، فاذا برموا به ، أو غضبوا منه ، كان الشأن عندى أن أتوجه بقلمى بعيداً عنهم ، وألا أدع لهم فى حديثى مجالا ... لعلك رأيت الآن أننى أحب النقد نزيها عفا منتجا ، وانى أتقبله راضياً ... على الرحب والسعة »

من ذكريات باريس :

ثم أخذنا نتناول الحديث مع الأستاذ الدكتور عن ذكرياته فى باريس ، فعلمنا منه أن أول ذكرياته تعلق بهذا الأثر الذى أودعته فى صدره اول نظرة ألقاها على مدينة النور . . . كان أثراً حزينا يدعو إلى الانقباض ويبعث على خيبة الأمل ، فقد كان الدكتور قد تخيل قبل سفره أن مدينة النور جماع الألوان الزاهية فى مبانيها وفى كل ما يتصل بها ، ولكنه جوبه من صروحها بهذا اللون القاتم ، ومن مشاهدها بتلك السماء العبوس . . . فمضى إلى الحى اللاتينى عله يطلع فيه على الطبقة الثانية من حى « الحسين » على أن خياله قد خانه مرة أخرى ، فليس حى الطلبة فى باريس إلا جماع الأبهة والرشاقة فى كل شىء يحتويه . . . ثم تسألنى كيف أفلت الدكتور من ضيق صدره فى أول يوم سبح فيه فى غمار باريس ، فأقول لك إنه مضى إلى الجامعة واخذ يتلو « إعلاناتها » الداعية إلى الامتحان ومواده وايامه .. فهاله الأمر ، وانطلق الضيق فراراً من دهشة الدكتور التى أصارته فى ايام قليلة باريسيا ، وباريسيا قحاً ..!

والآن ... لقد انتهى ما يجدر ذكره من حديث الدكتور زكى مبارك ، وإنه لممتع حقا أن تكون هذه الجلسة منار تلك الآراء الناضجة فى الأدب والنقد ؟

على احمد عامر

الوفاء

من حق الوفاء علينا ، نحو علامة مصر الكبير ، وفيلسوف الاسلام العظيم ، الأستاذ فريد بك وجدى ، أن نذكر بأن مرضاً طفيفاً ألم به — لم يمكنه من كتابة الجزء الثالث ، من بحثه القيم : « ماهى الحياة ؟ » الذى ننشره تباعاً . شفاه الله وعافاه ، وأبقاه ذخراً للعلم والدين .